# المحاضرة السادسة: فلسفة الأخلاق في الحضارة الصينية والهندية - دراسة مقارنة في الأسس والغايات والتحولات

## (الجزء الثاني)

علي كريم

### الجزء الثاني: الفلسفة الأخلاقية في الحضارة الهندية (أخلاق الواجب والخلاص)

على الجانب الآخر من الهيمالايا، طورت الحضارة الهندية نسقاً أخلاقياً معقداً يوازن بين متطلبات الحياة الدنيوية (Pravritti) والتوق إلى التحرر الروحي .(Nivritti) يمكن وصف الأخلاق الهندية بأنها رحلة من "الطقوس" إلى "المعرفة"، ومن "العمل" إلى "الانعتاق."

### خامسا: الجذور الفيدية والتحول الأوبانيشادي

### من النظام الكوني (Rta) إلى الدارما(Dharma)

في النصوص الفيدية القديمة، كان المفهوم المركزي هو "ريتا(Rta) "، وهو النظام الكوني الذي يضبط حركة الشمس والفصول، وكذلك السلوك البشري والطقوس. الفعل الأخلاقي هو الفعل المتناغم مع هذا النظام، وكان يتمثل أساساً في أداء التضحيات (Yajna) بدقة.11

مع مرور الزمن، تطور مفهوم "ريتا" ليصبح "دارما .(Dharma) "كلمة "دارما" مشتقة من الجذر السنسكريتي dhr بمعنى "يمسك" أو "يدعم". الدارما هي القانون الذي يمسك الكون والمجتمع ويمنعه من الانهيار. إنها تشمل الواجب الديني، والقانون الأخلاقي،

والعدالة، وطبيعة الشيء الجوهرية (فدارما النار هي الإحراق، ودارما المحارب هي القتال).12

**الثورة الداخلية في الأوبانيشاد**

شكلت نصوص الأوبانيشاد (حوالي 800-500 ق.م) منعطفاً حاسماً نحو الداخل. لم تعد الطقوس الخارجية كافية؛ بل أصبح الهدف هو المعرفة .(Jnana) طرحت الأوبانيشاد المعادلة الميتافيزيقية الكبرى: "أتمان" (الذات الفردية) هو "براهمان" (الحقيقة الكلية المطلقة).

الانعكاس الأخلاقي:

هذه الوحدة الوجودية أسست لأخلاق عالمية عميقة. إذا كان جوهرك هو جوهري، فإن إيذائي لك هو إيذاء لنفسي. يجادل "سارفيبالي رادكريشنان" بأن مبدأ "تات تفام أسي" (أنت ذاك) هو الأساس الميتافيزيقي للحب والأخوة.13 الأخلاق هنا ليست أوامر إلهية خارجية بقدر ما هي استجابة لطبيعة الواقع الواحد.

**الكارما: قانون السببية الأخلاقية**

تعتبر عقيدة "الكارما (Karma) "المحرك الديناميكي للأخلاق الهندية. الكارما تعني حرفياً "الفعل"، لكنها اصطلاحاً تشير إلى قانون السبب والنتيجة الأخلاقي. كل فعل (جسدي، لفظي، أو عقلي) يترك أثراً أو بذرة تنضج لتشكل تجارب المستقبل في هذه الحياة أو الحيوات القادمة[14].

- **المسؤولية الفردية** :تلغي الكارما الصدفة والظلم الإلهي؛ فكل إنسان هو مهندس مصيره.
- **المأزق الأخلاقي** :تخلق الكارما مشكلة وجودية؛ فالأعمال الصالحة تؤدي إلى ولادة جيدة (نعيم)، والأعمال السيئة تؤدي إلى ولادة سيئة (شقاء)، لكن كلتيهما

تبقيان الروح سجينة في "السامسارا" (دورة الولادة والموت). لذا، أصبح الهدف الأسمى هو كيفية العمل دون إنتاج كارما مقيدة، وهو ما عالجته "الباغافاد غيتا."

**سادسا: مصفوفة الدارما - الواجب والنظام الاجتماعي**

لم تترك الهند الأخلاق عائمة، بل أطرتها في نظام دقيق يُعرف بـ "فارناشراما دارما " (Varnashrama Dharma)، وهو نظام يربط الواجب بالموقع الاجتماعي والمرحلة العمرية.

**طبقية الأخلاق(Svadharma)**

الأخلاق في الهندوسية التقليدية "سياقية" وليست "مطلقة" في كل الأحوال. واجب (دارما) البرهمي (رجل الدين) يختلف عن واجب الكشاتريا (المحارب).

- **فارنا (الطبقة)** :للمحارب، القتل في المعركة واجب مقدس؛ للبرهمي، هو خطيئة كبرى. هذا ما يُعرف بـ "سفادارما (Svadharma) "أو الواجب الخاص بالفرد.
- **أشراما (مراحل الحياة)** :واجبات الطالب (التعلم والعفة) تختلف عن واجبات رب الأسرة (كسب المال والإنجاب)، وعن واجبات الزاهد (التخلي عن كل شيء)[12].

**البوروشارتاس (غايات الإنسان الأربع)**

تعترف الأخلاق الهندية بتعددية الدوافع البشرية، وتصنفها في أربع غايات مشروعة:[15]

1. **كاما :(Kama)** اللذة والاستمتاع الحسي والجمالي.
2. **أرثا :(Artha)** الثروة والسلطة والنجاح المادي.
3. **دارما :(Dharma)** القانون الأخلاقي الذي ينظم السعي نحو الكاما والأرثا.

4. موكشا :(Moksha) الانعتاق والتحرر النهائي من الدورة كلها.

رؤية تحليلية: تكمن عبقرية هذا النظام في واقعيته؛ فهو لا يطلب من الجميع أن يكونوا زهاداً فوراً، بل يشرعن اللذة والثروة شريطة أن تكونا تحت سقف الدارما، وفي خدمة الهدف النهائي (الموكشا).

**سابعا: الباغافاد غيتا - تركيب العمل والزهد**

تُعد "الباغافاد غيتا" النص الأخلاقي الأهم في الهندوسية، لأنها واجهت الصراع بين "أخلاق الواجب الاجتماعي" و"أخلاق الزهد والتحرر."

**المعضلة الأخلاقية**

يبدأ النص بانهيار الأمير "أرجونا" في ساحة المعركة. إنه يواجه صراعاً بين واجبين: واجبه كمحارب يلزمه بالقتال، وواجبه كقريب يلزمه بحماية أهله (الذين يصطفون في الجيش المعادي). يرفض أرجونا القتال خوفاً من تراكم الكارما السيئة[2].

**نيشكاما كارما (العمل المنزه عن الهوى)**

يقدم "كريشنا" الحل العبقري :**نيشكاما كارما**(Nishkama Karma) ، أي العمل دون تعلق بالنتائج.

- القاعدة الذهبية (الفصل 2، الآية 47): "لك الحق في العمل فقط، وليس في ثماره أبداً."
- بتحييد "الأنا" والرغبة في الثمرة، لا يولد الفعل كارما مقيدة، حتى لو كان الفعل هو القتال.
- هنا يتحول العمل الدنيوي إلى ممارسة روحية (يوغا). الإنسان يعيش في العالم ويؤدي واجبه بدقة متناهية، لكن قلبه معلق بالمطلق، لا بالمكسب أو الخسارة[16].

## ثامنا: الأخلاق البوذية - علم نفس النية والتطهير

انبثقت البوذية كحركة "شرامانا" (زهدية) رافضة لسلطة الفيداس والطبقية، لكنها احتفظت بإطار الكارما والسامسارا، مع إعادة تعريف جذرية للمفاهيم.

### الحقائق الأربع النبيلة كنسق أخلاقي

تشخيص الوجود بأنه "دوكها" (معاناة) يقود إلى علاج أخلاقي. سبب المعاناة هو "تانها" (الرغبة/التشبث). الطريق لإيقافها هو **الطريق الثماني النبيل**، الذي ينقسم إلى ثلاثة محاور [17]:

1. **سيلا - Sila) الأخلاق** :(الكلام الحق، العمل الحق، العيش الحق.
2. **سامادهي - Samadhi) الانضباط الذهني** :(الجهد الحق، التيقظ الحق، التركيز الحق.
3. **بانا - Panna) الحكمة** :(الفهم الحق، النية الحقة.

### مركزية النية(Cetana)

خلافاً للطقوسية البرهمية التي ركزت على دقة الفعل الخارجي، ركز بوذا على "سيتانا" (النية والإرادة). قال بوذا: "النية، يا رهبان، هي ما أسميه كارما". الفعل الجسدي دون نية (كأن تدوس حشرة خطأً) لا يحمل وزراً ثقيلاً، بينما نية الشر ولو لم تتحقق تحمل وزراً. هذا "نفسن (Psychologization) "للأخلاق[19].

### أخلاق الماهايانا: الكارونا والوسائل الماهرة

في البوذية اللاحقة (الماهايانا)، تحول النموذج الأخلاقي من "الأرهات" (الذي يسعى لخلاصه الشخصي) إلى "البوديساتفا" (الذي ينذر نفسه لخلاص جميع الكائنات).

- **كارونا (الشفقة/الرحمة)** :أصبحت الفضيلة العليا.

- **أوبايا (الوسائل الماهرة)** :قد يكسر البوديساتفا القواعد الأخلاقية الحرفية (مثل الكذب لإنقاذ حياة) إذا كانت نيته رحيمة وحكمته تقتضي ذلك. الأخلاق هنا مرنة وتخضع لغاية الرحمة القصوى[20].

**الجاينية: أخلاق اللاعنف المطلق(Ahimsa)**

تطرف الجاينيون في تطبيق أخلاق "اللاعنف (Ahimsa) "أكثر من أي مدرسة أخرى. اعتبروا أن إيذاء أي كائن حي (حتى الميكروبات أو الحشرات) يراكم "مادة كارمية" تثقل الروح وتمنع تحررها. أدى هذا إلى ممارسات أخلاقية صارمة للغاية مثل النظام الغذائي النباتي الصارم، وتغطية الفم لمنع ابتلاع الحشرات، والكنس أمام القدمين. تمثل الجاينية ذروة "أخلاق الزهد" حيث يكون الامتناع عن الفعل (الكف) هو أسمى أنواع الفعل[14].